

الكريمة ، وأكسبت الأوصاف الرفيعة تحولت في العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق أقدارها ، بقدر مازينت ، وحسب مازخرفت فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض ، وصارت المعاني في معنى الجوارى .

وليس مثل هذا القول قول من ييخص المعنى حقه ، أو يجعل الأدب لفظاً وصياغة فحسب ، ولكنه قول من يشرح دور الألفاظ في تأدية المعاني ، ومدى ماتستطيع أن تؤديه في خدمتها . وهو رأى كثير من النقاد ، ومنهم ابن رشيق الذى يشبه اللفظ بالجسم والمعنى بالروح ، ويقول إن ارتباط المعنى باللفظ كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان ذلك نقصاً للشعر وهجنة عليه .. وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظاً .. ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ ، وجريه فيه على غير الواجب .. فإن اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتاً لافائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة في السمع وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ، لأننا لانجد روحاً في غير جسم البتة (العمدة ١/٨٠) .

ويذكر ابن رشيق أن أكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى ، ويروى عن بعض الحذاق أن العلماء بالشعر قالوا إن اللفظ أعلى من المعنى ثمناً ، وأعظم قيمة ، وأعز مطلباً ، فإن المعاني موجودة في طباع الناس ، يستوى الجاهل فيها والحاذق . ولكن العمل على جودة الألفاظ ، وحسن السبك ، وصحة التأليف .. ألا ترى لو أن رجلاً أراد في المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه في الجود بالغيث والبحر ، وفي الإقدام بالأسد ، وفي المضاء بالسيف ، وفي العزم بالسيل ، وفي الحسن بالشمس .. فإن لم يحسن تركيب هذه المعاني في أحسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للركة والجزالة ، والعدوية والطلاوة ، والسهولة والحلاوة ، لم يكن للمعنى قدر . وذكر أن بعض العلماء مثل المعنى بالصورة ، واللفظ بالكسوة ، فإن لم تقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس فقد بختت حقها ، وتضاءلت في عين مبصرها ! .

وما نحسب هذا الكلام إلا تأييداً لفكرة الجاحظ ، وشرحاً لها ، ففيه إشارة إلى شيوع المعاني ، وتأثير الصياغة في جمال تلك المعاني وجلالها ، ثم في تأثيرها في القلوب والعقول .